قصة (عوض بنكخة الحُب)

بقلم الكاتبة "سُمية حُسني"

في إحدى' البلدان الفقيرة توجد فتاة سيئة الحظ وُلدت لتجد أنها تمتلك من الفقر أقصاه، تعاني كثيرًا، لم تعش مثل باقي الفتيات هذه الفتاة أنا وتلك الكلمات المتراصة بجانب بعضها البعض ما هي إلا فضفضة لتجربة حياتية.

أنا أُدعى بيداء وحيدة أبي وأمي كان والدي ساعي بريد ووالدتي ربة منزل "رحمة الله عليهما" أقطن في منطقة ريفية لم أكُ بـ ملتزمة من قبل والآن أصبحت مُلتزمة بعض الشيء حتى نعتوني بالمعقدة، أرتدي الخِمار وأحبه كثيرًا وبعد تنفيذ هذه الخطوة أصبحت وحيدة الأصدقاء حتى رزقني الله بصديقة مقربة تُدعى سها تأتي لي يوميًا لنتسامر سويًا في أمور الحياة والإطمئنان عليَّ، مُنذ وفاة والدي ووالدتي والفاجعة التي لن أنساها طوال عمري وأنا لستُ على ما يرام وفي مشاكل دائمة مع أشقاء أبي تارة بسبب الميراث والذي لا يتمثل في الكثير فقط المنزل وتارة أُخرى من غير أسباب واضحة هم فقط يكرهونني وكانوا يكرهون والدي ووالدتي، حقًا ينطبق عليهم المثل الذي يقول "الأقارب عقارب" دائمًا يضايقونني لأنني لم أتزوج وكُل من يتقدم لخطبتي يرفضني ظنًا منهم بـ أن الخِمار هو السبب وملامحي غير مقبولة مثلما يقولون لي.

لكني دائمًا أقول لهم أن الجمال لم ولن يكن بالملامح الجذابة وأن الجمال ليس بمقياس لشيء وحتى لو لم يرزقني الله بجمال الشكل فـَقد رزقني الله بـ مميزاتٍ أُخرى'.

***

مساء يوم الأحد جاءت سها لزيارتي..

- كيف الحال بيداء؟!
- الحمد لله على كل حال سها، كيف حالك أنتِ؟!
- لا تهتمي لشأني وأخبريني ما خطبك، هل تشاجر أحدٍ منهم معكِ؟

لأجب والدموع تملئ عينايَّ

- أجيبي أنتِ وقولي لي متى لم يتشاجروا معي ويخلقوا المشاكل من لا شيء، من يوم وفاة أبي وأمي وأنا لم أذق السعادة، شجارهم الدائم له معنى واحد فقط هو أن سندي غير موجود وليس هناك من يدافع عني وأنهم يستلذون بـ ذلي وتعذيبي، كان في مخيلتي أنهم سندًا لي أتكئ عليه، أنهم المذاق اللذيذ من علقم الزمان.
- بعد وفاة والدك ووالدتك لا يوجد سند، عمك أو خالك ما هم إلا أسماء على ورق، أنتِ السند الوحيد والأوحد لكِ.
- أنا قبيحة؟!
- ماذا تقصدين عزيزتي؟
- قبيحة!، جمال الشكل، جمال الروح، من جميع النواحي، أيمكنكِ الإجابة عليَّ دون تزييف للحقائق أرجوكِ.
- تزييف الحقائق؟! نحن أصدقاء والصديق هو مرآة صديقه.

حسنًا سـ أُجيب عليكِ.

لا، أنتِ جميلة ولطيفة، تمتلكين وجهًا جميلًا، بشوشًا، تمتلكين أيضًا قلبًا من ذهب وروحٍ خفيفة كـ الأطفال.

- وما مُبررك لقولهم الدائم أنني قبيحة أو حتى تفسيرك لرفض الخُطاب لي وعدم زواجي للآن
- النصيب يا صديقتي، عدم زواجك للآن ليس دليل أنك قبيحة أو إثبات لِما يقولون عزيزتي، النصيب وعوض الله سيكون بقدر جمال قلبك.

ولوهلة ونحن نتحدث شردتُ بخيالي لأقول لنفسي:

هل سيأتي اليوم الذي أتزوج فيه وأشعر ببعضٍ من الراحة؟!

هل سيأتي عوض الله الذي يُنسيني ما أنا به لكن كيف وكل من يتقدم لخطبتي يرفضني!، حقًا أنا الآن ليس لي أيًا من متطلبات الفتيات ولا أُريد غير الزواج صدقًا أي زواج ليس لي شروط فقط لأتخلص من هذا المنزل ومن تلك المشاجرات الدائمة وكأنها حروب نشبت ولا يوجد بها أي هدنة، لالا لا أُريد الزواج لطالما سيرفضونني كـ قبل، لن أنسى' الجملة التي قالها لي أحد الخُطاب حِينما قال لي "لن يتزوجك أحد بتلك الشروط والعمر يمر بكِ كـ البرق فَـ لماذا تلك الشروط التي تضعينها لشريك حياتك" ثم قطعت شرودي سها وقالت:_

- أرجو منكِ الصبر بيداء والصلاة فَـ قال الله عزوجل في كتابه العزيز
- "يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين"

- لا يوجد أمامي غير الصبر صديقتي لذلك سأصبر كما أنا ربما تحدث معجزة لي وتُنهي كل هذا.

وبعد الحديث الذي طال كثيرًا غادرت سها وتركتني فـَ قد تأخرت كثيرًا على والديها، ذهبت لتتركني غارقة في أفكاري وخيالي وإذ بعمي يقول لي أُريدك.

شعرتُ بالخوف وأنا أتساءل ماذا يريد ثم ذهبت لأعرف ماذا هناك لإرضاء فضولي فقط.

هل أنتِ موافقة؟! قال عمي هذه الجُملة لي وأنا في حالة من الذهول والصمت ثم قُلتُ لا.

وحدثت بيننا مشادة كلامية انتهت ببكائي وخسارتي لتلك المعركة.

***

- لا يا بيداء؟ لماذا؟

لماذا تقومين أنتِ بالرفض قبل معرفتك به!

- ولماذا انتظر الرفض منه هو!
- وما دليلك على رفضه، ولماذا يرفض! أراكِ تحكمين على الأمور بسطحية وسذاجة وأيضًا لا تمتلكين ثقة بنفسك، اعطيه فرصة واعطِ قلبك فرصة.

وبعد أن أنهينا الحديث تركتني مرة أُخرى وذهبت حتى أفكر بـ حديثها، أدري أنني خائفة وخوفي هذا لأنهم طرف ثالث بيني وبينه وأنا لم أطمئن لهم أبدًا لكن ليس باليد حيلة وكل ما يجب عليَّ فعله هو الموافقة وكما قالت سها التجربة ليست بخسارة، لماذا رحلت! فَـ قد تركتني لخيالي بين الخوف، الطمأنينة، التوتر والثبات ثُم ذهبتُ لأُصلي قيام الليل ولم أشعر بنفسي غير وأنا ساجدة لله أبكي بشدة وغير قادرة على الدعاء فقط أقول يارب وأبكي أكثر فَـ أكثر

***

- قال لي بصوتٍ عالٍ تقولين لي البارحة لا واليوم نعم موافقة.
- لم أجيب وذهبت لحجرتي واستلقيت على سريري لأبكي بصوتٍ منخفض، أخذتُ هاتفي من فوق المنضدة وهاتفت سها لأعرف رأيها فيما حدث.
- ردة فعل عمي كانت تخيفني أيضًا، كنت أعلم تمام العلم أنه سيرفض عند موافقتي.

وقبل إجابة سها لي أحدهم طرق باب الحجرة خاصتي، أنهيتُ حديثي معها لأقوم بفتح الباب فَـ إذ بعمي يقول لي على موعد مقابلة العريس.

تفاجئت! تركني في ذهولي ودهشتي ورحل، هاتفت سها لأقول لها على الموعد وموافقة عمي التي كانت بالنسبة لنا مفاجأة غير متوقعة وحتى' تأتي لي يوم المقابلة لتُهدئ من روعي.

***

- اللهم بارك عليه يا بيداء.
- هل لكِ أن تغلقي النافذة وتأتي إلى هنا، سيراكِ.
- هل أنتِ خائفة أو متوترة؟!
- نعم خائفة.
- أنا هنا معكِ وكل شيءٍ سيكون على ما يرام.

وبعد أن هدئت من روعي وتوتري سمعنا صوت عمي يُنادي فقالت لي سها هيا إذهبي ولا تقلقي وقبل أن أقوم بفتح باب الحجرة قالت لي أُحبك ورددت على' مسمعي عدة كلمات ومنها أنتِ جميلة، كنت في قمة سعادتي وخرجت من الحجرة وأنا واثقة بنفسي وبملامح وجهي وأدركتُ تمامًا كم أنا جميلة، شكرًا سها شكرًا لأنك صديقتي.

***

هدوء يسود المكان وأنا بخطوات غير مُتزنة ومتخبطة أتمايل خائفة من الرفض مرة أُخرى'

- السلام عليكم.

قال عمي وهو يبتسم ابتسامة تخفي الكثير من الكلام ورائها تفضلي ابنتي إلى هنا، انتابتني الدهشة من كلمة ابنتي التي لم أسمعها منه من قبل

- وعليكم السلام.

الهدوء يسود المكان مرة أُخرى نتبادل أنا وهو النظرات ليرن هاتف عمي ويقطع تلك النظرات ثم يستأذن عمي للخروج للرد على الهاتف للضرورة القصوى'، عينايّ كانت تترابص بعمي حتى خرج وغاب عن نظري.

نظرت له ووجدته ينظر لي ليقول:_

- كيف الحال.

لأجب بتوتر

- الحمد لله بخير.

بسبب توتري الشديد لم أسأله عن حاله فقال لي وأنا أيضًا بخير، فَ سبب لي الإحراج والتوتر أكثر، فَ قال لي مرة ثانية لم أقصد إحراجك لكن لا أُريد إنهاء الحديث معكِ، فَ نظرت للخارج بتوتر.

- ما خطبك؟
- لا شيء، فقط أنظر هل عمي آتٍ أم لا فَ قد تأخر.

صمت لثوانٍ معدودة وقال لي:

- كيف حالك مرة أُخرى فـ قُلتُ الحمد لله بخير وأدركت هنا أنه ينتظر سؤالي على حاله فَ قمت بتوجيه سؤالي له عن حاله فـ قال بـ ابتسامة وفرحة عارمة
- الحمد لله مثلك.

وشعرت حينها أن تلك الفرحة العارمة بسبب فهمي له وتوجيهي لسؤالي عن حاله، اكتفيتُ بعدم الرد وابتسامة صغيرة على شفتاي، تحدثنا كثيرًا وقال لي كُل شيء عنه وقُمت بسؤاله عدة أسئلة كما قالت لي سها وسألني بعضًا من الأسئلة التي كُنت أجب عن بعضها والبعض الآخر لا وتحدثنا عن الخِمار كثيرًا، وبعد إنتهاء المقابلة ذهبت وهاتفت سها التي رحلت حِينما تأخرتُ عليها خوفًا من أخيها وحدثتها بكُل ما دار بيننا.

- هل أنتِ سعيدة بيداء؟
- لا أدري أو لربما نعم، وأنا جالسة معه شعرتُ بشعور غريب ودفء، يقيني في الله خير، هل أدرك قلبك يومًا معنى' أن يأتي شخصًا ليلفت قلبك قبل نظرك؟ كانت المرة الأولى التي نجلس سويًا ونتحدث لكن إلتفت له قلبي وروحي.

نظرت لي سها وعيناها تملؤها الدموع كـ اللآلئ وقبل أن تتفوه بـ أي حديث ضمتني وكانت في سعادة عارمة فقط لأنها رأتني سعيدة، فَـ هي نعم الصديق.

- فـ همهمت بصوت منخفض قائلة:
- لكنني خائفة، لا زلتُ خائفة.
- لماذا؟!
- من الرفض، فَـ سعادتي أو موافقتي ليس معناهما موافقته هو أيضًا.
- لا تقنطي من رحمة الله، ثقي بالله وذاتك، فَـ خوفك من الشيء يجعله يحدث.

مر خمس عشر يومًا ولم يأتي أو حتى يُرسل لنا أي جواب بالموافقة أو الرفض فَ من عادات وتقاليد بلدتنا إنتظار رآي الخاطب لمدة لا تزيد عن أسبوع ولو لم يأتي أي جواب يعني هذا عدم الموافقة.

شعرتُ بالخيبة وأشقاء أبي يضايقونني بعدم موافقة الخاطب والتي لم تُقال في جوابٍ صريحٍ وواضح

حاولتُ نسيان الأمر ووجود سها كان يهون عليَّ الأيام والليالي الحالكة حتى بدأتُ في نسيان تعاستي وخيبتي، وكل هذا فقط بسبب وجود سها معي، أدركت الآن ما معنى "اختار الصديق قبل الطريق" فَ قد أغناني الله بها وبحبها عن جميع الأصدقاء والأهل فَ كانت هي السند لي ولستُ أنا سندًا لنفسي كما قالت

وبعد مرور أيام ليست بكثيرة جاءنا الجواب ومعه إعتذار عن التأخير ومُبرر لما حدث، شعرتُ بفرحة جديدة صادقة، وتم تحديد موعد الزفاف لعدة ظروف لم يأخذ الموضوع وقت كبير.

***

- سعيدة يا سها، سعيدة سعادة عارمة، أحقًا عوض الله جميل هكذا!

أحقًا قلبي يتراقص فرحًا وجنونًا لوجوده جانبي!

هذا ليس بحلمٍ أليس كذلك؟

- لا، ليس حلمًا، مُبارك عزيزتي وصديقة روحي، بيداء!

- نعم؟
- الخاطب الذي تقدم لخطبتكِ وقال لكِ الكلمات التي دائمًا ترددها على مسمعك ومسمعي وتحزني لقد تم إنفصاله هو وزوجته البارحة، قولي حمدًا لله أنك لستِ هي "لو علمتم الغيب لأخترتم الواقع يا بيداء"
- الحمد لله، ربنا يعوضه ويعوضها.

***

لم أدرك معنى' السعادة الحقيقة إلا في حضرة وجوده، كان أهلي، زوجي، أبي، أخي وقرة عيني كان لي الجميع، فقط سجدة في جوف الليل وآنين لا يسمعه إلا الله ودعوة آتت بـعوض الله لي ولقلبي، صدقًا لم أعرف حكمة ما أنا به غير الآن، فـَقلبي يكاد أن يخرج من جوفه من السعادة، عوضنا جميعًا عن ما مررنا ونمر وسوف نمر به مثل هذا العوض الجميل.

***